

بسم الله الرحمن الرحيم



نظرة صوفية على التصوف

تختلف نتائج النظرات السطحية عن نتائج النظرات التأملية ، و يختلف عمق كل نظرة تأملية عن غيرها ، فكلما كانت النظرة أعمق كانت النتائج أغرب . تقتصر المعرفة في أكثر العلوم الطبيعية على المشاهدات و النظرات الظاهرية و السطحية بينما تتعدى هذه النظرة في العلوم العقلية و الروحية ظاهر الأمور و ترتقي الى باطنها . تنكشف أسرار و جواهر و خبائث الأمور عند الغوص في باطنها .

الإنزواء و العزلة خارج الأمراض النفسية من الطقوس الروحية التي يسعى بها المرء الغوص في داخله لكشف ما تخفي الروح و النفس في باطنه . تعدى مفهوم التعبد في العقيدة الإسلامية الأحكام الظاهرية نتيجة النظرات التأملية في المفاهيم الإلهية كذلك أدت الأوضاع السياسية الى إعتكاف بعض الناس في العبادة و تفضيلهم الإنزواء على الجماعة . أدت هذه النظرات التأملية و هذا الإعتكاف لظهور حالات روحانية جديدة لم تشهدها الجزيرة العربية بهذا الشكل ، بمرور الزمن دخلت هذه الحالات مطبات جديدة حتى أخذت أسم و مفهوم التصوف . ناهيك عن منشأ هذا الإسم هل هو من الصفّ أم من الصوف أم من الصفاء أم من الصوفيا (الحكمة في اليوناني) أو أي أسم آخر فالتصوف الإسلامي الروحي و النفسي يخصّ المسلمين و لم ينتقل إليهم من الهند أم من بلاد فارس أم من

الديانة المسيحية أو البوذية لكن تأثرت الفلسفات الصوفية ببعضها . من الخطأ أن ننسب التصوف في أي مكان و لأي قوم لمكان و قوم آخر لأن التصوف و الحالة الصوفية من الأمور الذاتية عند الإنسان ، هل يصح أن ننسب حالة الطفل الرضيع بالنسبة لثدي إمه لقوم خاص؟

لا تقتصر الحالة الصوفية على المفاهيم الإلهية و التعبدية فقط فمنشأ أكثر العلوم و الفنون و الفلسفات هو التصوف . يعتبر التصوف العلمي منشأ جميع النظريات العلمية ، فالرياضيات و التي تعتبر أم العلوم هي الحالة المثلى للتصوف العلمي ، عندما كشف الفيثاغورثيون الأعداد الصماء (مثل جذر الإثنين) حاولوا كتمان هذه الحقيقة التي لا تتماشى مع حالتهم و نظرتهم الصوفية للعالم على إنها أنغام فواصل موسيقية من أعداد صحيحة و كسرية .

يلجأ الإنسان للتصوف بصورة عامة نتيجة التصديق و التسليم المفرط للمفاهيم و المبادئ التي يؤمن بها ، يصل التصديق و التسليم به لحالة الوجد التي تجتمع فيها الأضداد ، أضداد يقودها إيمانه بمفاهيمه و مبادئه فيلجأ للإعتكاف ليستأنس بهذه القيادة . عند العزلة تبدأ الأضداد تصارع بعضها و يحدث نوع من الانقلاب في داخله ، أكثر المتصوفة لا يعلمون منشأ هذا الانقلاب هل هو من الشيطان ، من قوى الشر ، أو من طبيعته الروحية و الفسيولوجية للإنسان أو ... أقول: القلب مخزن الصفات و الإعتكاف مفتاحه . لا يسمح الإيمان بالإستسلام لهذه الأضداد ، فيبدأ المعتكف بحاسب نفسه و يلقي اللوم عليها فيحدث إنقلاب آخر أكثر تعقيداً و هو إنقلابه هو على نفسه ، يقاوم المعتكف أو الصوفي هذا الإنقلاب بريضة النفس و مجاهدتها .

الحكمة أرقى من التصوف ، و الحكيم يمتاز على الصوفي بعدم اللوم . من خصوصيات الصوفي ذمام و لوام ، يذم الدنيا و يلومها ، يذم نفسه و يلومها . يبدأ الصوفي اللوم من نفسه حتى يصل الى لوم الطبيعة و الطباع ، بينما لا تصل الحكمة مع الحكيم لهذا المقام . الصوفي يأتي الى الحكمة ، و الحكيم تأتيه الحكمة . الحكيم دائماً في إسترخاء و الصوفي دائماً في توتر . يتقبل الحكماء الإمارة و لا يتقبلها المتصوفة ، لأن الصوفي في صراع و الحكيم في أحاء . يدنو الصوفي من الله ببعده عن لذائذ الدنيا و يقترب الحكيم الى الله بقربه من لذة الدنيا . معرفة الصوفي لله في النهار غير معرفته له بالليل ، يعرفه بالنهار معرفة مقطوعة الغرائز (المادية) ، و يعرفه بالليل معرفة مليئة اللذائذ (المعنوية) ، جميع لذائذ الحكيم غرائز و جميع غرائزه لذائذ . كلّ حكيم صوفي ، لكن لا كلّ صوفي حكيم .

الصوفي هو في سلم مع كل شئ إلا مع نفسه . نتائج هذا الصراع أقول و بزوغ بعض الصفات و أسوأها بروز الضغائن و الأحقاد و الحسد ! لا يستطيع الصوفي أن يصارع جميع الصفات النفسية السيئة داخله في آن واحد ، مجاهدته لبعض الصفات السيئة و إنتصاره عليها يترك خلاً تملئه حالات و صفات أخرى لم يعتني بها في بادئ الأمر لأنها في هذا المقطع من جهاده لا تؤثر على مبادئه و معتقداته و توابكها بعض الشئ ، تبدأ من النظرة المخالفة و الدونية لمن لا يؤمن بما هو مؤمن به حتى ترتقي الى لثم و ضغائن و أحقاد ثم حسد و إستعلاء . النظرة الخاطئة للنفس على إنها منشأ الشرّ و النظرة العدوانية لها أدت الى أنواع المفاسد . النفس الإنسانية كسائر أعضاء و قوى الإنسان الأخرى نسيج من تقوى و فجور ، لكن ما يميز النفس عن سائر الأعضاء و القوى الأخرى نوعية المنطق الحاكم عليها . لا تخضع الصفات النفسانية لحالة واحدة من حالتين ، و إنما لتغيرات من عدة متغيرات . في داخل النفس الإنسانية مجموعة مُعقدة من الصفات المرتبطة مع بعضها من تقوى و فجور ، أي إختلال في أي من هذه الصفات يؤثر على باقي الصفات بالنتيجة يؤثر على الإنسان نفسه ، و هو أشبه بالدورات الطبيعية المغلقة و

إرتباط الموجودات الحية مع بعضها في الطبيعة . نفسياً إطفاء حالة أو صفة سيئة لا يؤدي بالضرورة لعمل حالة أو صفة حسنة أخرى . لا يمكن إطفاء حالة أو صفة نفسية بالكامل لكن يمكن تنزيلها أو ترفيعها لمستويات مختلفة ، تغير مستوى صفة يؤثر سلبياً و إيجابياً على بعض الصفات الأخرى . تنتهي رياضة النفس و مجاهدتها بهبوط مستويات كثير من الصفات اللا أخلاقية و العدوانية و سمو بعض الصفات الأخلاقية الأخرى و في نفس الوقت تستفحل صفات أخرى مذمومة بعيدة عن قائمة الصفات الجهادية . من أهم الصفات المذمومة التي تستفحل و يجهلها الصوفي أو يتجاهلها بدعوى الغيرة و الدفاع هي الحقد و الحسد . يبدأ الصوفي تصوفه و هو خالي من الأحقاد ، حتى ينتهي جهاده و رياضته بجبل من زهد و ورع يكسو الحسد قمته . حسد لا يعرف هو منشئه . ينشئ هذا الحسد نتيجة الخلل الذي يصيب الصفات الأخرى . ينتج عن هذا الحسد غرور باطني يختلف عن الغرور الجسمي و النفسي و المعرفي نتيجة الفراغ الذي ينتج من الدلّ الظاهري في المأكل و الملبس و المأوى و المعاشرة ، إستعلاء باطني نتيجة التواضع الظاهري . الحسد في هذه المرحلة يختلف عن الحسد العادي الذي يراود العامة و الذي دوائه المعوذتين ، لكن ذلك الحسد من نوع آخر لا يداويه القرآن كله ! لذلك على مروّض النفس أن يملأ بذكر الله مفرغ بفضل الله . يقع أكثر سالكي التصوف من أي مسلك كانوا إلا ما شاء الله في هذا الحسد و العلوّ الذي ينتهي بهم الى النظرة الدونية على الآخرين أو الى وحدة الوجود أو الإلوهية . يعطي الحقّ لنفسه من هذه النظرة و هذا الإستعلاء حتى أن:

يوحد التفريد ، له حقّ التوحيد و ليس له حقّ التفريد
يفردّ التوحيد ، له حقّ التفريد و ليس له حقّ التوحيد
يدعي الإلوهية ، له حقّ الإدعاء و ليس له حقّ الإدلاء
نهاية هذه الحقوق حقّ لا يقابله حقّ فيصبح هو الحقّ !

قلما نرى أو نسمع عن كبار الصوفية يروجوا أو يمدحوا فكر صوفي آخر . دائماً كنت أنظر الى الأدب الصوفي بالأدب المجهول فأشعارهم و نصوصهم مليئة بالمواعظ و الحكم التي تروى عن إناس مجهولون أو عظام مثل : قال حكيم ، روي عن وزير ، قيل للأمير ، رأيت زاهد ، سمعت من أحد العرفاء ... أو عن رؤى و أحلام . لا يسمح لهم العلوّ الموجود في داخلهم بذكر أسماء ، و يميلون للألقاب أكثر من ميولهم للأسماء .

يكتبوا كبار الصوفية أفكارهم بصورة قطع شعرية و نثرية . يميلون للكلام الموزون و المقفي ، و ذلك نتيجة الفراغات السماعية التي تنتج في إذهانهم نتيجة الإنزواء و لا تملأها إلا القوافي . كذلك يميلون لبعض الحركات الجسدية نتيجة الفراغات الإيقاعية في أنفسهم و التي تنتج عن رياضة النفس .

طريق التصوف طريق صعب و شاق لا يمكن شقه بسهولة و كل من سلكه لا يدركه و كثير من سلكوه تركوه أو لم يكملوه فبقوا في مراحل ناقصة منه فيها رواسب الحسدّ و الأحقاد و الضغائن و الضنون . و من تبعوه تهورت أرواحهم و تدهورت أحوالهم و تبلورت أفكارهم ، و من أكملوه ألقوا أنفسهم أثقالها و أوزارها و شعروا بخفة النفس و إرتياحها فحلّقوا بها عاليا فرثوا الأشياء شيئاً واحداً .

وقفت الفيزياء على مشارق الإشراق معلناً تصوفها بالبحث عن نظرية توّحد فيها النظريات و عن جسيم بدأت منه الأجسام . و اعتكفت الميتافيزيقيا في الصوامع و الكنائس و المساجد معلناً تصوفها بالبحث عن فلسفة تضمّ جميع الفلسفات ، و سلك العابد مسالك الزهد معلناً تصوفه بالبحث عن المعبود في وحدة الوجود . كلّ من يسلك طريق التصوف و لم يصل الى وحدة الوجود ليس بصوفي ، يمكن أن يكون روحاني رحمانى نوراني أما صوفي فلا .

عندما يصل الصوفي الى حالة الوجد و الإشراق إما أن يتأله و إما أن يسكت . لذلك نرى بعض كبار الصوفية يتألمون من الحالات التي يصلون إليها في نهايات مسيراتهم و يصل بهم الألم الى الحسرة على ما كسبوه و بعضهم يتمنى الجهل ، يصلون لحالات لا يستطيعون دفعها بكل علمهم ، فهم لا جسم بين الأجسام و لا نور بين الأنوار ، رقيقون مع الناس غلضاء على أنفسهم ، يكسو الحرير أرواحهم و الصوف أجسامهم ، يبنون القصور في السماء و يسكنون الخرائب على الأرض !

نزل الإسلام بتأني لكن دون بتوتر، و ظهر بحكمة لكن إنتشر بتصوف ، و الدنيا اليوم مليئة بالعلماء و المفكرين و المتصوفين لكن لا يوجد فيها حكيم واحد .

جلال الحاج عبد

2010 - 5 - 25



موقع جلال الحاج عبد

www.jalalalhajabed.com

البريد الإلكتروني :

jalal.alhajabed@hotmail.com

jalal.alhajabed@yahoo.com